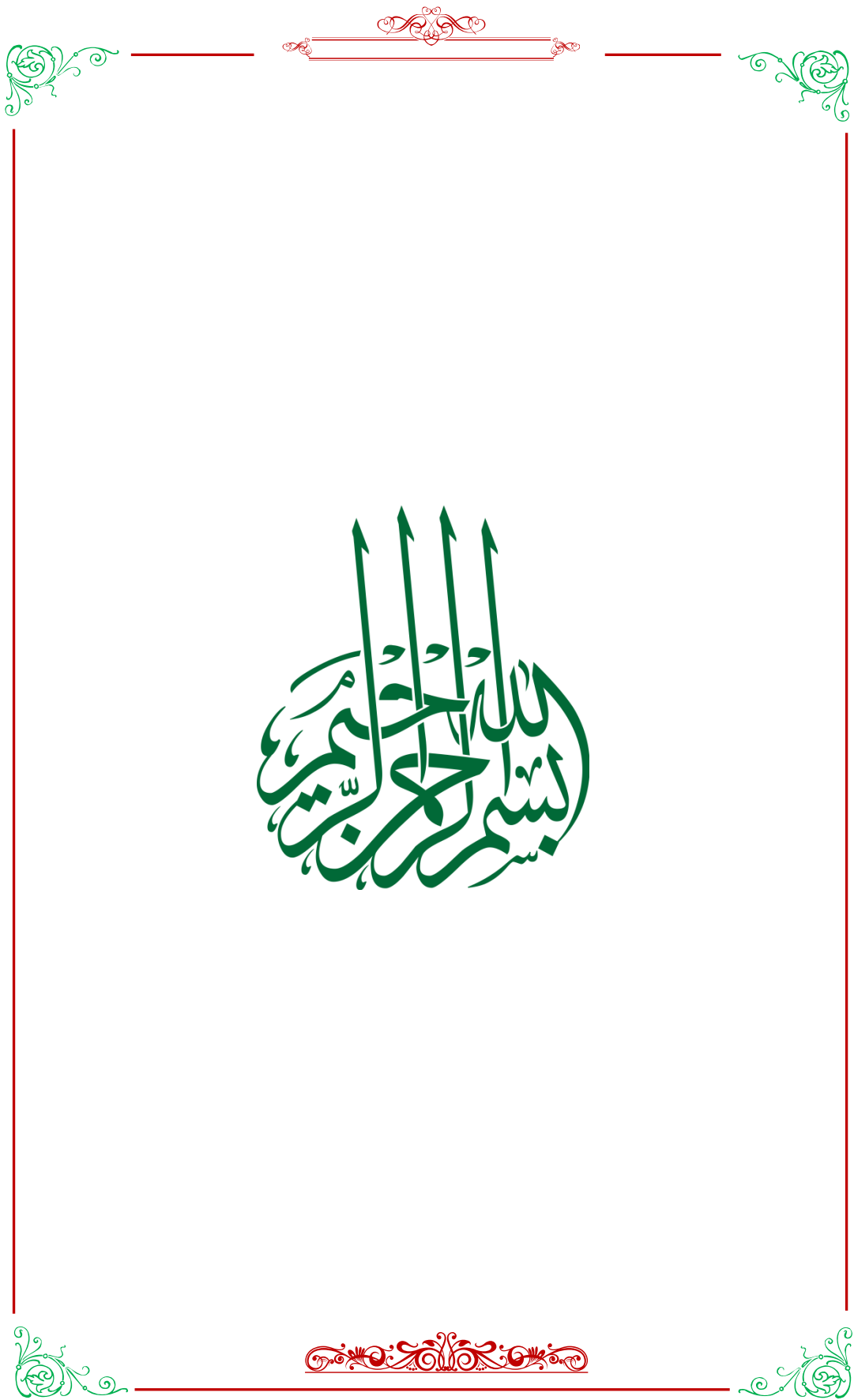
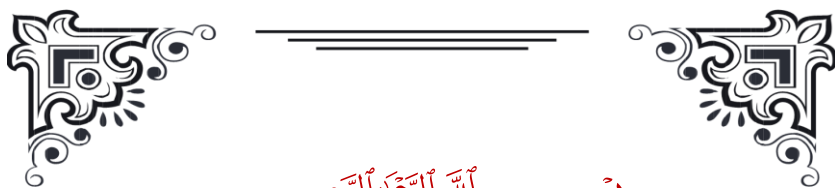


من آداب طالب العلم

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ ابْنِ طَوْقٍ الْمُرِّيُّ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين^(١).

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ فَضْلَ الْعِلْمِ وَشَرَفَهُ وَشَرَفَ أَهْلِهِ مِمَّا تَوَاتَرَتْ بِهِ أَدْلَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَهُوَ أَوْلَى مَا تُصَرِّفُ إِلَيْهِ الْهِمَمَ، وَتُعْتَنِمُ بِهِ السَّاعَاتِ، وَالْمَشْتَغَلُ بِهِ فِي خَيْرٍ عَظِيمٍ، وَفَضْلٍ عَمِيمٍ:

الْعِلْمُ أَعْلَى وَأَحْلَى مَا لَهُ اسْتَمَعَتْ أُذُنٌ وَأَعْرَبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمٍ
الْعِلْمُ غَايَتُهُ الْقُضْوَى وَرُتْبَتُهُ الـ عَلِيَاءُ فَاسْعَوْا إِلَيْهِ يَا أُولِي الْهِمَمِ
الْعِلْمُ أَشْرَفُ مَطْلُوبٍ وَطَالِبُهُ اللَّهُ أَكْرَمُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ
الْعِلْمُ نُورٌ مُبِينٌ يَسْتَضِيءُ بِهِ أَهْلُ السَّعَادَةِ وَالْجُهَالِ فِي الظُّلَمِ
الْعِلْمُ أَعْلَى حَيَاةٍ لِلْعِبَادِ كَمَا أَهْلُ الْجَهَالَةِ أَمَوَاتٌ بِجَهْلِهِمْ^(٢)

ومن أكرمه الله ومنَّ عليه بسلوك طريق طلب العلم فليعلم أنه لا ينتفع بالعلم ولا يجني ثمراته إلا من تحقق بآدابه، وتحلَّى بأخلاقه؛ لذا لم يزل السلف يوصون طالب العلم بالتحلِّي بالأدب، حتى قال عبدالله بن المبارك رحمه الله: «كَادَ الْأَدَبُ أَنْ يَكُونَ ثُلْثِي الْعِلْمِ»^(٣).

وكان رحمه الله يقول: «نَحْنُ إِلَى قَلِيلٍ مِنَ الْأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ»^(٤). وقد كان السلفُ يعتنون بالأدب كما يعتنون بالعلم، قال ابن سيرين رحمه الله: «كَانُوا

(١) أصل هذه الأوراق كلمة بعنوان «من آداب طالب العلم» كانت في ٢٦ شوال عام ١٤٤٧هـ، وقد

اطلع ملقيها على هذه الأوراق قبل نشرها. (رابط الكلمة الصوتي) (الرابط على اليوتيوب).

(٢) «المنظومة الميمية» لحافظ الحكمي (الأبيات: ١٦-٢٠).

(٣) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٤/ ١٤٥).

(٤) «المحدث الفاضل» للرامهرمزي (ص: ٥٥٩).

يَتَعَلَّمُونَ الْهَدْيَ كَمَا يَتَعَلَّمُونَ الْعِلْمَ»^(١).

وقال الإمام مالك رحمه الله: «كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي وَتَقُولُ لِي: اذْهَبْ إِلَى رَبِيعَةَ فَتَعَلَّمْ مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ»^(٢).

وقد كان يجتمع في مجلس الإمام أحمد زهاء خمسة آلاف؛ نحو خمس مئة يكتبون، والباقيون يتعلمون منه حسن الأدب وحسن السمات.

ولمّا كانت هذه طريقتهم في تحصيل العلم -يتعلمون الأدب مع العلم- ظهر عليهم أثر العلم في سلوكهم، وعبادتهم، وتعاملهم؛ قال الحسن البصري رحمه الله: «كَانَ الرَّجُلُ يَطْلُبُ الْعِلْمَ فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَرَى ذَلِكَ فِي تَخَشُّعِهِ وَهَدْيِهِ وَلِسَانِهِ وَبَصَرِهِ وَبِرِّهِ»^(٣).

وهذا يبيّن عظيم قدر الأدب، وضرورة العناية به، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: «مَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْفَعُهُ عِلْمُهُ»^(٤)، ومن أعظم ما يصون به طالب العلم نفسه: التحلي بآداب العلم والتخلق بأخلاقه.

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ لَا تَبْغِي بِهِ بَدَلًا فَقَدْ ظَفِرْتَ وَرَبَّ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ
وَقَدِّسِ الْعِلْمَ وَاعْرِفْ قَدْرَ حُرْمَتِهِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَالْآدَابِ فَالْتَزِمِ^(٥)

فينبغي لطالب العلم أن يولي هذا الباب عنايته، وأن يحرص على التحلي بآداب العلم، وبهذا يسمو المرء ويعلو:

وَالْمَرْءُ لَا يَسْمُو بِغَيْرِ الْأَدَبِ وَإِنْ يَكُنْ ذَا حَسَبٍ وَنَسَبٍ

-من أهم آداب طالب العلم وأعلامها وأكدها وأسناها: الإخلاص لله عز وجل، ذلك أن

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي» (٩).

(٢) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (١/ ١٣٠).

(٣) أخرجه البيهقي في «المدخل» (٢/ ٧٣٧)، والخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي» (١٧٥).

(٤) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» لابن مفلح (١/ ٢١١).

(٥) «المنظومة الميمية» لحافظ الحكمي (البيتان: ٦١-٦٢).

العلم عبادة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].
قال بعض العلماء: «العلم عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن»^(١).

فإذا فقد العلم إخلاص النية انتقل من كونه أفضل الطاعات فصار من أخطأ المخالفات،
وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ،
وَمُنْفِقٌ، وَمُجَاهِدٌ؛ فَالْعَالِمُ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَالْمُنْفِقُ تَصَدَّقَ لِيُقَالَ: جَوَادٌ، وَالْمُجَاهِدُ
جَاهَدَ لِيُقَالَ: شَجَاعٌ»^(٢)؛ فهو لاء - نسأل الله العافية - أول خلق الله تُسَعَّرُ بهم النار يوم القيامة.

-ومما يعين على تحقيق الإخلاص: الدعاء؛ ففي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشَّرَّ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ»، فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ تَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُهُ»^(٣)؛ فأرشد إلى الدعاء، وذلك أن قلوبنا بيد الله سبحانه وتعالى، قال صلى الله عليه وسلم: «الْقُلُوبُ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»^(٤)، فهذا الدعاء ينبغي أن يدخله طالب العلم في دعائه ويكثر منه؛ فإن النية شديدة التقلب.

قال سفيان الثوري رحمه الله: «مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي؛ لِأَنَّهَا تَقَلَّبُ عَلَيَّ»^(٥)، ومن استعان بالله أعانه.

وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا، وَاجْعَلْهُ

(١) ينظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤٨/١).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١٩٠٥).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (١٩٦٠٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٣٧٣١).

(٤) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٦٥٤).

(٥) أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي» (٦٩٢).

لِوَجْهِكَ خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا»^(١).

-ومما يُعين أيضًا على تحقيق الإخلاص: أن تعلم أن العمل بلا إخلاص مردود؛ فالعمل -كما يقول ابن الجوزي-: «صُورَةٌ، وَالْإِخْلَاصُ رُوحٌ، وَإِذَا لَمْ تُخْلِصْ فَلَا تَتَعَبُ، لَوْ قَطَعْتَ سَائِرَ الْمَنَازِلِ لَمْ تَكُنْ حَاجًّا إِلَّا بِشُھُودِ الْمَوْقِفِ»^(٢).

فكذلك من يعمل بأنواع الطاعات لكن بغير إخلاص؛ هذا يتعب نفسه. قال صلى الله عليه وسلم: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكَهُ»^(٣)، وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ»، قالوا: وَمَا الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا، فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟»^(٤).

وَالنِّيَّةَ اجْعَلْ لِوَجْهِ اللَّهِ خَالِصَةً إِنَّ الْبِنَاءَ بِدُونِ الْأَصْلِ لَمْ يَقُمْ
وَمَنْ يَكُنْ لِيَقُولَ النَّاسُ يَطْلُبُهُ أَخْسِرُ بِصَفْقَتِهِ فِي مَوْقِفِ النَّدَمِ
وَمَنْ بِهِ يَبْتَغِي الدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حَظٍّ وَلَا قِسَمٍ^(٥)

-ومما يعين على تحقيق الإخلاص: الحرص على عبادات الخفاء، والنظر في أحوال السلف في ذلك والاتساء بهم.

قال الحسن البصري رحمه الله: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ جَارُهُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ فَقِهَ الْفِقْهَ الْكَثِيرَ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيُصَلِّيَ الصَّلَاةَ الطَّوِيلَةَ

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» -رواية عبد الله- (٦١٧).

(٢) «اللطائف» لابن الجوزي (ص: ١٠).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٩٨٥).

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٤١٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١٢٠).

(٥) «المنظومة الميمية» لحافظ الحكمي (الآيات: ٦٦-٦٨).

فِي بَيْتِهِ وَعِنْدَهُ الزُّوَّارُ وَمَا يَشْعُرُونَ بِهِ، وَلَقَدْ أَدْرَكْنَا أَقْوَامًا مَا كَانَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ عَمَلٍ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي سِرٍّ فَيَكُونُ عَلَانِيَةً أَبَدًا» (١).

وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه: «مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَبِيَّةٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ» (٢).

ولا يؤثر على صحة النية طلب الشهادة الجامعية؛ يقصد بذلك أن تكون سبباً في نشر العلم ونفع الأمة.

- ومن آداب طالب العلم: الجدّ في طلب العلم وبذل الجهد في تحصيله، وأن يعلم أنه في ميدان سباق، وأن الأوقات تنتهب؛ فما تأخر من تأخر إلا بالكسل، ولا وصل من وصل - بعد توفيق الله - إلا بالجد والعزم:

بِقَدْرِ الْكَدِّ تُكْتَسَبُ الْمَعَالِي وَمَنْ طَلَبَ الْعُلَا سَهَرَ اللَّيَالِي
تَرْوُمُ الْعِزِّ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلًا يَغُوصُ الْبَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّالِي (٣)

وقد قال يحيى بن أبي كثير رحمه الله تعالى: «لَا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ» (٤).

ومن العجيب أن الإمام مسلماً رحمه الله أخرج هذا الأثر في «صحيحه» بإسناده في أحاديث المواقيت، وموطن العجب أن الإمام مسلماً رحمه الله وضع صحيحه للأحاديث المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلماذا روى هذا الأثر عن واحدٍ من صغار التابعين؟ ثم أين وضعه؟ وضعه في أحاديث الصلاة!

الإمام مسلم رحمه الله رَتَّبَ روايات حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما في أوقات الصلاة ترتيباً حسناً استوعب فيه اختلاف الطرق، فأراد أن ينبّه القارئ إلى أنه لا يُحَصِّلُ مثل

(١) أخرجه عبدالله بن المبارك في «الزهد» - رواية المروزي - (١٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود في «الزهد» (١١٩).

(٣) «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» (ص ٣٦٣).

(٤) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٦١٢).

هذا إلا بعد مشقةٍ وتعبٍ في طلب العلم. ذكره القاضي عياض رحمه الله في «إكمال المعلم»^(١)، ولما كان لعبارة يحيى بن أبي كثير وقعها في نفس الإمام مسلم ذكرها في هذا الموضع.

وقد قال ابن القيم رحمه الله: «الكمالات كلها لا تنال إلا بحظٍّ من المشقة، ولا يوصل إليها إلا على جسرٍ من التعب»^(٢).

وقال إبراهيم الحربي رحمه الله: «أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم»^(٣).

وقال أبو تمام في قصيدته المشهورة في «فتح عمورية»^(٤):

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ

وللمتنبي في هذا المعنى^(٥):

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالُ

وله أيضاً^(٦):

تُرِيدِينَ لُفْيَانَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ

وله أيضاً^(٧):

وَإِذَا كَانَتِ النَّفُوسُ كِبَارًا تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ

(١) ينظر: «إكمال المعلم» للقاضي عياض (٢/ ٥٧٧).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٨٩٥).

(٣) «جامع المسائل» لابن تيمية (٢/ ٣٩٣).

(٤) «أخبار أبي تمام» لأبي بكر الصولي (ص: ١١٣).

(٥) «الأمثال السائرة من شعر المتنبي» (ص: ٦٥).

(٦) «أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه» (ص: ١٢٦).

(٧) «شرح معاني شعر المتنبي» لابن الإفيلي - السفر الأول (١/ ١٧٥).

وهذا هو اللائق بطالب العلم: أن يكون مجتهداً في تحصيله، عالي الهمة، قوي التوجه

إلى مقصوده:

وَأَعْلَمُ بِأَنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ يَنَالُهُ مَنْ هَمُّهُ فِي مَطْعَمٍ أَوْ مَلْبَسٍ
فَاخِرِصْ لِتَبْلُغَ فِيهِ حَظًّا وَافِرًا وَاهْجُرْ لَهُ طِيبَ الْمَنَامِ وَغَلْسِ

وقال المتنبي (١):

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ

وقد قال بعض العلماء في صغره حين بلغ خمس عشرة سنة:

أَبْعَدَ بُلُوغِي خَمْسَ عَشْرَةَ أَلْعَبُ وَالْهُوَ بِـلَذَاتِ الْحَيَاةِ وَأَطْرَبُ
وَلِي نَظَرٌ عَالٍ وَنَفْسٌ أَبِيَّةٌ مَقَامًا عَلَى هَامِ الْمَجَرَّةِ تَطْلُبُ
وَعِنْدِي آمَالٌ أُرِيدُ بُلُوغَهَا تَضِيعُ إِذَا لَاعَبْتُ دَهْرِي وَتَذْهَبُ
وَلِي أُمَّةٌ مِنْكُودَةُ الْحَظِّ لَمْ تَجِدْ سَبِيلًا إِلَى الْعَيْشِ الَّذِي تَتَطَلَّبُ
عَلَى أَمْرِهَا أَنْفَقْتُ دَهْرِي تَحْسُرًا فَمَا طَابَ لِي طَعْمٌ وَلَا لَذٌّ مَشْرَبُ
وَلَا رَاقٌ لِي نَوْمٌ وَإِنْ نِمْتُ سَاعَةً فَإِنِّي عَلَى جَمْرِ الْغَضَا أَتَقَلَّبُ

-ومن أعظم ما يعلي الهمة: النظر فيما جاء في الكتاب والسنة وآثار السلف من فضل

العلم وشرفه، وشرف أهله في الدنيا والآخرة، وأحيل هنا إلى ما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى في «مفتاح دار السعادة»؛ فإنه ساق أكثر من مئة وخمسين وجهًا في بيان فضل العلم وشرفه ووجوه ذلك وآثاره، فأمتع وأطرب وأتى بكل بديع (٢).

-ومما يعلي الهمة ويسمو بالنفس: النظر في همم العلماء المتقدمين والمتأخرين؛ هذا

(١) «شرح ديوان المتنبي» لأبي العلاء المعري (ص ١٩٢).

(٢) ينظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٣١).

الإمام مالك رحمه الله ذكروا في ترجمته: أنه قلما صلى الصبح إلا بوضوء العشاء تسعاً وأربعين سنة^(١)، وذلك لاشتغاله بالعلم والعبادة.

وكان في ابتداء طلبه العلم قد ألمّ به الفقر حتى باع خشب سقف بيته في طلب العلم!^(٢) وهذا عبدالرحمن بن القاسم رحمه الله - أثبت الناس في مالك، وأصحهم رواية عنه، وأعلمهم بأقواله - ارتحل من مصر إلى الإمام مالك رحمه الله وزوجه حامل، فلزمه بالمدينة وأقام بها، حدث رحمه الله عن نفسه قال: «أَنْخْتُ بَبَابِ مَالِكٍ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، مَا بَعْتُ فِيهَا وَلَا اشْتَرَيْتُ شَيْئًا، فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ إِذْ قِيلَ: أَقْبَلَ حَاجٌّ مِصْرَ، فَإِذَا شَابٌّ مُتَلَثِّمٌ دَخَلَ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ عَلَى مَالِكٍ، وَقَالَ: أَفِيكُمْ ابْنُ الْقَاسِمِ؟ فَأَشِيرَ إِلَيَّ، فَأَقْبَلَ يُقَبِّلُ عَيْنَيَّ، وَوَجَدْتُ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَإِذَا هِيَ رَائِحَةُ الْوَلَدِ، وَإِذَا هُوَ ابْنِي!»^(٣)، وكان ترك أمه به حاملاً كما سبق، وكان خير أمه عند سفره لطول إقامته فاخترت البقاء.

وهذا الإمام يحيى بن معين رحمه الله: كان أبوه من الأغنياء، خلّف له ألف ألف درهم، فأنفقها كلها في طلب الحديث حتى لم تبق له نعلٌ يلبسها!^(٤)

وهذا الإمام الحافظ ابن منده رحمه الله: طاف الشرق والغرب في طلب العلم مرتين، رحل وعمره عشرون سنة، ورجع من رحلته وعمره خمس وستون سنة؛ فكانت رحلته خمسين وأربعين سنة! ثم عاد إلى وطنه شيخاً؛ فتزوج وهو ابن خمس وستين، ورزق الأولاد، وحدث بالعلم الكثير.

وهذا الخطيب البغدادي رحمه الله قرأ «صحيح البخاري» كلّهُ على إسماعيل الحيري في ثلاثة مجالس، قال الذهبي في «تاريخ الإسلام»: «وَهَذَا شَيْءٌ لَا أَعْلَمُ أَحَدًا فِي زَمَانِنَا

(١) ينظر: «إكمال تهذيب الكمال» للمزي (١١ / ٣٠).

(٢) ينظر: «موطأ مالك» (١ / ٢٢).

(٣) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٣ / ٢٥٠).

(٤) ينظر: «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١٦ / ٢٦٥).

يَسْتَطِيعُهُ»^(١).

وهذا أبو الوفاء بن عقيل رحمه الله كان يقول: «إِنِّي لِأَجِدُ مِنْ حِرْصِي عَلَى الْعِلْمِ وَأَنَا فِي عَشْرِ الثَّمَانِينَ أَشَدَّ مِمَّا كُنْتُ أَجِدُهُ وَأَنَا ابْنُ عَشْرِينَ»^(٢)، وكان ينشد وهو في الثمانين:

مَا شَابَ عَزْمِي وَلَا حَزْمِي وَلَا خُلُقِي وَلَا وَلَائِي وَلَا دِينِي وَلَا كَرَمِي
وَأِنَّمَا اغْتَاَصَ رَأْسِي غَيْرَ صِبْغَتِهِ وَالشَّيْبُ فِي الرَّأْسِ غَيْرُ الشَّيْبِ فِي الْهِمَمِ^(٣)

هكذا ينبغي أن تكون الهمم، وفي أمثال هؤلاء يصدق قول الشاعر^(٤):

رَامَ الْأَقَاصِي حَتَّى حَازَهَا وَمَضَى تَبَارَكَ اللَّهُ مَاذَا تَبْلُغُ الْهِمَمُ!

والناس متفاوتون في هممهم متفاوتاً عظيماً؛ فهمة - كما يقول ابن القيم -: «مُتَعَلِّقَةٌ بِمَا فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهِمَّةٌ حَائِمَةٌ حَوْلَ الْأَتْنَانِ وَالْحُشِّ»^(٥).

قيل لطفيلٍ تمنّ، فقال: «نَدَامَى تَسْكُنُ صُدُورُهُمْ» أي يعاملونه معاملة رقيقة ولا يطرّدون من يأتيهم، «وَتَغْلِي قُدُورُهُمْ، وَلَا تُغْلِقُ دُورُهُمْ»^(٦).

وقيل لآخر: تمنّ، فقال: «أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ الْكَثِيبَ الْفُلَانِيَّ حَبًّا لِيُنْقَلَهُ إِلَى آلِ فُلَانٍ لِيَأْخُذَ أُجْرَتَهُ».

ويقول جميل بثينة يبين مَبْلَغَ هِمَّتِهِ^(٧):

يَقُولُونَ: جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بِغَزْوَةٍ وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرُهُنَّ أُرِيدُ؟

(١) «تاريخ الإسلام» للذهبي (١٠ / ١٧٥).

(٢) «الحث على طلب العلم» لأبي هلال العسكري (ص: ٦٢).

(٣) «ذيل تاريخ بغداد» للمحب ابن النجار (١٩ / ٣٩ ط العلمية).

(٤) «ديوان ابن نباتة المصري» (ص: ٤٣٩).

(٥) «مدارج السالكين» لابن القيم (٣ / ٥٧٤).

(٦) «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» (٣ / ١٣٣).

(٧) «أمالى القالي» (٢ / ٣٠٠).

لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ وَكُلُّ قَتِيلٍ عِنْدَهُنَّ شَهِيدٌ
هذا قدر همته! نسأل الله العافية.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تَصْغُرَنَّ هِمَّتُكُمْ؛ فَإِنِّي لَمْ أَرَأَقْعَدَ عَنِ الْمَكْرُمَاتِ مِنْ صِغَرِ الْهِمَمِ»^(١).

وأين هذه الهمم من همة عمر بن عبد العزيز رحمه الله حين قال: «إِنَّ لِي نَفْسًا تَوَاقَّةً؛ لَمْ تَزَلْ تَتَوَقُّ إِلَى الْإِمَارَةِ، فَلَمَّا نِلْتُهَا تَاقَتْ إِلَى الْخِلَافَةِ، فَلَمَّا نِلْتُهَا تَاقَتْ إِلَى الْجَنَّةِ»^(٢).

هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا لَيْسَ كُلُّ الرَّجَالِ تُدْعَى رِجَالًا

- ومن آداب طالب العلم: العناية بالحفظ وكثرة التكرار حتى يرسخ العلم؛ ومن نظر في تراجم السلف والأئمة وجد أن طريقتهم في ضبط العلم هي التكرار، وكانوا يقولون: «الشَّيْءُ إِذَا لَمْ يُعَدَّ سَبْعِينَ مَرَّةً لَا يَسْتَقِرُّ»^(٣).

فَلَا يُمِلَّنَكَ مَا تَكْرَرًا لَعَلَّهُ يَحُلُو إِذَا تَقَرَّرًا^(٤)
ولبعضهم:

خَلِيلِي لَا تَكْسَلْ وَلَا تُهْمِلِ الدَّرْسَا وَلَا تُعْطِ يَوْمًا فِي بَطَالَتِهَا النَّفْسَا
وَلَا تَتْرُكِ التَّكْرَارَ فِيمَا حَفِظْتَهُ فَمَنْ تَرَكَ التَّكْرَارَ لَا بُدَّ أَنْ يَنْسَى^(٥)

والتقصير في تكرار العلم هو السبب في أن الواحد منا إذا ترك الاشتغال بفنٍّ مدة ثم رجع إليه؛ وجد أن كثيرًا من مسأله غير حاضرة في ذهنه؛ السبب في هذا هو التقصير في التكرار. وقد ذكر ابن الأثير رحمه الله تجربة له في «المثل السائر»، قال: «كُنْتُ جَرَدْتُ مِنَ الْأَخْبَارِ

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ٣١٩).

(٢) «الحلية» لأبي نعيم الأصبهاني (٥/ ٣٣١).

(٣) «لسان الميزان» لابن حجر (٣/ ٤٣).

(٤) «اللؤلؤ المكنون في أحوال الأسانيد والامتون» لحافظ الحكمي (البيت: ٤٢).

(٥) «النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية» لزروق (ص: ١٨).

النَّبَوِيَّةَ كِتَابًا يَشْتَمِلُ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافٍ خَبَرٍ تَدْخُلُ فِي الْأَسْتِعْمَالِ، وَمَا زِلْتُ أُوَاطِبُ عَلَى مُطَالَعَتِهِ مُدَّةً تَزِيدُ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ، فَكُنْتُ أَنْهِيَ مُطَالَعَتَهُ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ مَرَّةً حَتَّى دَارَ عَلَى نَاطِرِي وَخَاطِرِي مَا يَزِيدُ عَلَى خَمْسِ مِئَةِ مَرَّةٍ، وَصَارَ مَحْفُوظًا لَا يَشُدُّ عَنِّي مِنْهُ شَيْءٌ^(١)، وهذا الذي ذكره أنه لا يشد عنه منه شيء؛ هذا الذي كلنا يسعى أن يصل إليه، وقد بين ابن الأثير رحمه الله السبيل إليه وهو التكرار، حتى يكون العلم كالكتاب في صدرك:

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَا حَوَى الْقِمَاطُ مَا الْعِلْمُ إِلَّا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ^(٢)

وقال الإمام الشافعي رحمه الله^(٣):

عِلْمِي مَعِيَ حَيْثُمَا يَمُمْتُ يَنْفَعُنِي
إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِيَ
قَلْبِي وَعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقٍ
أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ

وقال ابن حزم رحمه الله^(٤):

فَإِنْ تُحْرِقُوا الْقِرْطَاسَ لَا تُحْرِقُوا الَّذِي
يَسِيرُ مَعِيَ حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رِكَائِبِي
دَعُونِي مِنْ إِحْرَاقِ رَقٍّ وَكَاغِدٍ
وَالَا فَعُودُوا فِي الْمَكَاتِبِ بَدَاةً
نَضَمَنَّهُ الْقِرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْزَلَ وَيُذْفَنُ فِي قَبْرِي
وَقُولُوا بِعِلْمٍ كَيْ يَرَى النَّاسُ مَنْ يَدْرِي
فَكَمْ دُونَ مَا تَبْغُونَ لِلَّهِ مِنْ سِتْرِ

وقد قال بعضهم في ذم جمع الكتب وعدم حفظ ما فيها وهو من أحسن ما قيل في معناه:

أَمَّا لَوْ أَعْيَ كُلُّ مَا أَسْمَعُ
وَلَمْ أَسْتَفِدْ غَيْرَ مَا قَدْ جَمَعْتُ
وَأَحْفَظُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَجْمَعُ
لَقِيلَ هُوَ الْعَالِمُ الْمُصْقَعُ

(١) «المثل السائر» (١/ ١٢).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٢٩٣).

(٣) «المحاضرات والمحاورات» للسيوطي (ص: ٢٥٠).

(٤) «مداواة النفوس» (ص: ١٦).

وَلَكِنَّ نَفْسِي إِلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ الْعِلْمِ تَسْمَعُهُ تَنْزِعُ
فَلَا أَنَا أَخْفِظُ مَا قَدْ جَمَعْتُ وَلَا أَنَا مِنْ جَمْعِهِ أَشْبَعُ
وَأَخْضُرُ بِالْجَهْلِ فِي مَجْلِسِي وَعِلْمِي فِي الْكُتُبِ مُسْتَوْدَعُ
وَمَنْ يَكُ فِي عِلْمِهِ هَكَذَا يَكُنْ دَهْرُهُ الْقَهْقَرَى يَرْجِعُ
إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَاعِيًا فَجَمْعُكَ لِلْكُتُبِ لَا يَنْفَعُ^(١)

ومن اللطيف أن الفقهاء اختلفوا في المفلس الذي يباع ماله لسداد الديون التي عليه؛ اختلفوا هل تباع كتبه أو لا؟ قال خليل في «مختصره»^(٢): «وَلَوْ كُتِبَا»؛ أي ولو كان مال المفلس كتباً فإنها تباع في سداد ديونه.

قال بعض الشراح معللاً ذلك: «لَأَنَّ شَأْنَ الْعِلْمِ أَنْ يُحْفَظَ»^(٣)، وإن كان الفقهاء اختلفوا في هذه المسألة، فبعضهم يقول: إن الحفظ قد ضعف شأنه عند كثير من المتأخرين؛ فلذا أجروا الكتب على آلة الصانع، وآلة الصانع لا تباع، قالوا: فكذلك الكتب^(٤).

المقصود: أن الطريق إلى إحكام العلم وإتقانه هو كثرة التكرار، وهذا الذي عليه أهل العلم قديماً وحديثاً، وهو الذي لم يزالوا يحثون عليه.

وفي ترجمة إلكيا الهراسي رحمه الله: أنه كان في المدرسة التي يدرس فيها قناة لها سبعون درجة، وكان رحمه الله إذا أخذ الدرس ينزل القناة، ويعيد الدرس على كل درجة مرة في النزول والصعود؛ أي أنه يعيد الدرس مئة وأربعين مرة! وكذلك كان يفعل في كل درس يأخذه^(٥). وشواهد كثرة التكرار في سير العلماء كثيرة جداً، ولا يكون الرسوخ في العلم إلا بذلك.

(١) «الحث على طلب العلم» لأبي هلال العسكري (ص ٦٩).

(٢) «مختصر خليل» (ص: ١٦٩).

(٣) «شرح الزرقاني على مختصر خليل» (٥/ ٤٨٤).

(٤) ينظر: «حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» (٣/ ٢٧٠).

(٥) ينظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٧/ ٢٣٢).

وقد نقل ابن الجوزي رحمه الله في كتاب «الحث على حفظ العلم»: أن فقيهاً أعاد الدرس في بيته مراراً كثيرة، فقالت له عجوز في بيته: «قَدْ وَاللَّهِ حَفِظْتُهُ أَنَا!»، فقال: «أَعِيدِيهِ»، فأعادته، فلما كان بعد أيام قال: «يَا عَجُوزُ، أَعِيدِي ذَلِكَ الدَّرْسَ»، فقالت: «مَا أَحْفَظُهُ»، قال: «إِنِّي أَكْرَرُ عَدَّ الْحِفْظِ لِيَلَّا يُصَيِّبَنِي مَا أَصَابَكَ»^(١).

- ومن آداب طالب العلم: مذاكرة الأقران؛ فبالمذاكرة يثبت العلم ويتحرر ويحيا في النفس:

وَأَدِمِ لِلْعِلْمِ مُذَاكِرَةً فَحَيَاةَ الْعِلْمِ مُذَاكِرَتُهُ

قال النووي رحمه الله في «شرح مقدمة مسلم»: «وَمُذَاكِرَةُ حَاضِرٍ فِي الْفَنِّ سَاعَةٌ أَنْفَعُ مِنَ الْمُطَالَعَةِ وَالْحِفْظِ سَاعَاتٍ بَلْ أَيَّامًا»^(٢).

وقد ورد عن علي رضي الله عنه أنه قال: «تَذَاكُرُوا الْحَدِيثَ؛ فَإِنَّكُمْ إِن لَّمْ تَفْعَلُوا ذَاكُمْ يَبْدُرِسِ الْعِلْمُ»^(٣).

وقال الزهري: «إِنَّمَا يُذْهِبُ الْعِلْمَ النِّسْيَانُ وَتَرَكُ الْمُذَاكِرَةِ»^(٤).

وإذا حرص طالب العلم على المذاكرة وأكثر منها لم ينس ما علم، واستفاد ما لم يعلم، وازدادت محبته للعلم.

ومن هنا عظمت عناية السلف والأئمة بالمذاكرة؛ قال أسد بن الفرات رحمه الله - وكان قدِمَ على ابن القاسم رحمه الله في مصر ليأخذ عنه مذهب الإمام مالك - قال: «كَانَ ابْنُ الْقَاسِمِ يَخْتِمُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَتْمَتَيْنِ، فَتَزَلَّ لِي حِينَ جِئْتُ إِلَيْهِ عَنْ خَتْمَةٍ رَغْبَةً فِي إِحْيَاءِ الْعِلْمِ»^(٥).

(١) «الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ» (ص ٤٤).

(٢) «شرح النووي على مسلم» (١ / ٤٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥ / ٢٧٨١).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١ / ٤٤٣).

(٥) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٩ / ١٢١).

وذكر عبدالله ابن الإمام أحمد ما كان بين أبيه وأبي زرعة الرازي رحمهما الله من المذاكرة، قال: «لَمَّا قَدِمَ أَبُو زُرْعَةَ نَزَلَ عِنْدَ أَبِي، فَكَانَ كَثِيرَ الْمَذَاكِرَةِ لَهُ، فَسَمِعْتُ أَبِي يَوْمًا يَقُولُ: مَا صَلَّيْتُ غَيْرَ الْفَرَضِ، اسْتَأْثَرْتُ بِمَذَاكِرَةِ أَبِي زُرْعَةَ عَلَى نَوَافِلِي»^(١).

وقد كان بعض أئمة العربية يلقب بـ«المذاكرة» لشدة تعلقه بالمذاكرة؛ كان متى لقي رجلاً من إخوانه قال له: «هَلْ لَكَ فِي مَذَاكِرَةِ بَابِ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ؟»، فَلُقِّبَ بـ«المذاكرة» لذلك^(٢).
فيحسّن بطالب العلم أن يتخذ قريناً للمذاكرة، يكون جاداً حريصاً على الوقت، مشاركاً له في اهتمامه؛ فإنه إذا تيسر له ذلك انتفع أيما انتفاع.

-ومن آداب طالب العلم: حفظ الأوقات وعدم تضييعها؛ قال ابن الجوزي رحمه الله: «يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ شَرَفَ زَمَانِهِ وَقَدْرَ وَقْتِهِ؛ فَلَا يُضَيِّعُ مِنْهُ لَحْظَةً فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ، وَيُقَدِّمُ الْأَفْضَلَ فَالْأَفْضَلَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ»^(٣).

وقد حثنا النبي صلى الله عليه وسلم على اغتنام الأوقات فقال: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»^(٤).

وَأَيَّامَ الْحَدَاثَةِ فَأَغْتَنِمْهَا أَلَا إِنَّ الْحَدَاثَةَ لَا تَدُومُ
ولبعضهم:

أَتَرْجُو أَنْ تَكُونَ وَأَنْتَ شَيْخٌ كَمَا قَدْ كُنْتَ أَيَّامَ الشَّبَابِ
لَقَدْ كَذَبْتُكَ نَفْسُكَ لَيْسَ ثَوْبٌ دَرِيسٌ كَالْجَدِيدِ مِنَ الثِّيَابِ^(٥)

(١) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١٢ / ٣٤).

(٢) ينظر: «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (ص ٩٥).

(٣) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص ٣٣).

(٤) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٨٢٣).

(٥) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١٤ / ١٣١).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «مَا شَبَّهْتُ الشَّبَابَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَانَ فِي كُمِّي فَسَقَطَ»^(١).
لذا ينبغي أن يعرف طالب العلم قيمة الزمن، وكيف يمكن أن يعظم انتفاعه إذا أحسن
اغتنامه، وصانه عن فضول الكلام والطعام والمجالس واللقاءات:

وَالْوَقْتُ أَنْفَسُ مَا عُذِيَ بِحِفْظِهِ وَأَرَاهُ أَسهَلَ مَا عَلَيْكَ يَضِيعُ^(٢)

-من أعظم ما يحمل على ذلك: النظر في أخبار السلف في حرصهم على أوقاتهم وفي قيمة
الزمن عندهم؛ وقد قال الحسن البصري رحمه الله: «أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا كَانَ أَحَدُهُمْ أَشَحَّ عَلَى
عُمْرِهِ مِنْهُ عَلَى دَرَاهِمِهِ وَدَنَانِيرِهِ»^(٣).

وقال عبدالرحمن بن أبي حاتم عن أبيه المحدث المشهور أبي حاتم رحمهما الله: «رُبَّمَا
كَانَ يَأْكُلُ وَأَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَيَمْشِي وَأَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَيَدْخُلُ الْخَلَاءَ وَأَقْرَأُ عَلَيْهِ، وَيَدْخُلُ الْبَيْتَ فِي طَلَبِ
شَيْءٍ وَأَقْرَأُ عَلَيْهِ»^(٤).

وقال عبدالرحمن بن مهدي رحمه الله: «كُنَّا مَعَ الثَّوْرِيِّ جُلُوسًا بِمَكَّةَ، فَوَثَبَ وَقَالَ: النَّهَارُ
يَعْمَلُ عَمَلَةً!»^(٥).

وقال عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله أيضًا: «لَوْ قِيلَ لِحَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ: إِنَّكَ تَمُوتُ غَدًا
مَا قَدَّرَ أَنْ يَزِيدَ فِي الْعَمَلِ شَيْئًا!»^(٦). وأخبارهم في ذلك كثيرة.

- ومن آداب طالب العلم: العمل بالعلم؛ فإن العلم إنما يطلب للعمل، والذي يفوق

(١) «مناقب الإمام أحمد» (ص ٢٧١).

(٢) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٢ / ٢٤٦).

(٣) «الزهد والرقائق» لابن المبارك - ت الأعظمي - (ص ٤).

(٤) «سير السلف الصالحين» لإسماعيل الأصبهاني (٤ / ١٢٣٥).

(٥) «الزهد الكبير للبيهقي» (ص ٢٩٧).

(٦) «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» - ط السعادة - (٦ / ٢٥٠).

الناس في العلم جدير أن يفوقهم في العمل^(١) كما قال الحسن البصري رحمه الله .
وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «لَا يَكُونُ الرَّجُلُ عَالِمًا حَتَّى يَكُونَ بِالْعِلْمِ عَامِلًا»^(٢) .
وقد سُئِلَ ابن المبارك رحمه الله: هل للعلماء علامة يعرفون بها؟ فكان من جوابه: «عَلَامَةُ الْعَالِمِ مَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ»^(٣) .

وكان سفيان الثوري رحمه الله ينشد متمثلاً^(٤) :
إِذَا الْعِلْمُ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ كَانَ حُجَّةً عَلَيْكَ وَلَمْ تُعْذَرْ بِمَا أَنْتَ جَاهِلُهُ
فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ عِلْمًا فَإِنَّمَا يُصَدِّقُ قَوْلَ الْمَرْءِ مَا هُوَ فَاعِلُهُ
ويحمل طالب العلم على العمل أن يعلم أنه سيُسأل يوم القيامة عن علمه هل عمل به؛
قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ» وذكر أربعة منها:
«وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ»^(٥) ، وفي رواية: «وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عِلِمَ»^(٦) .

قال أبو إسحاق الإلبيري رحمه الله في «التائية»^(٧) :
وَإِنْ أُوتِيتَ فِيهِ طَوْلٌ بَاعٍ وَقَالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ سَبَقْتَا
فَلَا تَأْمَنُ سُؤَالَ اللَّهِ عَنْهُ بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ فَهَلْ عَمِلْتَا؟

-
- (١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٧٠٦) .
(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد - ط دار صادر - (٢/ ٣٥٧) .
(٣) «إبطال الحيل» لابن بطة (ص ٣٤) .
(٤) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٦٩٩) .
(٥) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٢٤١٧)، والدارمي في «السنن» (٥٥٤)، وحسنه الألباني في «السراج المنير في ترتيب أحاديث صحيح الجامع الصغير» (٢/ ١٢٦٧) .
(٦) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٢٤١٦) .
(٧) «ديوان أبي إسحاق الإلبيري» (ص: ٢٧) .

وقديماً قيل: «عِلْمٌ بِلَا عَمَلٍ كَشَجَرٍ بِلَا ثَمَرٍ»^(١).

وقال الإمام مالك رحمه الله: «بَلَّغْنِي عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ رحمه الله أَنَّهُ قَالَ: أَدْرَكْتُ النَّاسَ وَمَا يُعْجِبُهُمُ الْقَوْلُ، إِنَّمَا يُعْجِبُهُمُ الْعَمَلُ»^(٢).

وقد قال معروف الكرخي رحمه الله: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ شَرًّا أَغْلَقَ عَنْهُ بَابَ الْعَمَلِ وَفَتَحَ عَلَيْهِ بَابَ الْجَدَلِ»^(٣)، ومعروف الكرخي هذا هو الذي قال فيه الإمام أحمد رحمه الله: «وَهَلْ يُرَادُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ؟!»^(٤).

وللخطيب البغدادي في هذا المعنى - أعني العمل بالعلم - كتاب صغير حجمه عظيم نفعه هو «اقتضاء العلم العمل».

- ومن آداب طالب العلم: تعليم العلم متى تَأَهَّلَ لذلك، وهو من أجلّ العبادات؛ قال سفيان الثوري رحمه الله: «لَا أَعْلَمُ مِنَ الْعِبَادَةِ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنْ أَنْ تُعَلَّمَ النَّاسَ الْعِلْمُ»^(٥).

وقيل لعبد الله بن المبارك رحمه الله: لو لم يبق من عمرك إلا يوم ما كنت صانعاً؟ قال: «كُنْتُ أَعْلَمُ النَّاسَ»^(٦).

وطالب العلم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه، وازداد كثرة وقوة وظهوراً، والجزاء من جنس العمل؛ فكما أنه علم الخلق من جهالتهم جزاه الله بأن علّمه وزاده علماً، ذكر هذا المعنى ابن القيم - رحمه الله تعالى - في «مفتاح دار السعادة» بنحوه، واستشهد بما في «الصحيحين» من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفَقَ أَنْفَقَ

(١) «التمثيل والمحاضرة» (ص: ١٦٦).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٦٩٧)، ووصله ابن وهب في «الجامع» (ص ٥٤٩).

(٣) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/ ٥١٠).

(٤) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١٥/ ٢٦٥).

(٥) أخرجه البيهقي في «المدخل» (٢/ ٧٢٥).

(٦) أخرجه البيهقي في «المدخل» (٢/ ٧٢٥).

عَلَيْكَ»^(١)، قال ابن القيم: «وَهَذَا يَتَنَاوَلُ نَفَقَةَ الْعِلْمِ إِمَّا بِلَفْظِهِ وَإِمَّا بِتَنْبِيهِهِ وَإِشَارَتِهِ وَفَحْوَاهُ»^(٢).

فتعليم العلم من العالم ومن طالب العلم المتأهل من أشرف وسائل تحصيل العلم والازدياد منه، فعلى طالب العلم أن يأخذ بحظه منه بحسب ما يليق بمثله إذا كان لذلك أهلاً. والعكس بالعكس؛ فمن خزن علمه ولم يُعَلِّمه ابتلاه الله بنسيانه والذهاب منه، جزاء من جنس عمله، قال ابن حبان رحمه الله في «روضة العقلاء»: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطُّ بَخَلَ بِالْعِلْمِ إِلَّا لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ»^(٣).

قال الإلبيري رحمه الله^(٤):

يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ مِنْهُ وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفًا شَدَدَتَا

وللشيخ محمد فال ولد متالي الشنقيطي رحمه الله:

وَتَارِكُ التَّعْلِيمِ عَاصٍ أَبَدًا إِنْ كَانَ تَرْكُهُ بِلَا عُذْرٍ بَدَا
وَعُذْرُهُ طَلَبُ عَيْشٍ لَازِمٍ أَوْ اشْتِدَادُ مَرَضٍ مُلَازِمٍ

وليس تعليم العلم قاصراً على العالم المنتهي، بل إن لطالب العلم نصيبه من ذلك إذا حصل قدرًا صالحًا من العلم وتأهل للتعليم؛ وقد قال ربيعة الرأي رحمه الله: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يُضَيِّعَ نَفْسَهُ»^(٥)، وقال سعيد بن جبير رحمه الله: «لَأَنَّ أَنْشُرَ عِلْمِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى قَبْرِي»^(٦).

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٨٢٦٩)، ومسلم في «الصحيح» (٩٩٣).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١ / ٣٦٣).

(٣) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» لابن حبان (ص ٤٠).

(٤) «ديوان أبي إسحاق الإلبيري» (ص ٢٦).

(٥) «صحيح البخاري» (١ / ٢٧).

(٦) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٤ / ٣٢٦).

-ومن آداب طالب العلم: أن يأخذ بحظٍّ وافٍ من العبادة؛ من تلاوة القرآن، وكثرة ذكر الله، والمحافظة على السنن، وقيام الليل، والصفّ الأول في المسجد، وإدراك تكبيرة الإحرام، ونحو ذلك من العبادات؛ فالعلم النافع يظهر أثره على صاحبه في زهده وإقباله على الآخرة، ونشاط قلبه للطاعة، وكلما ازداد علماً ازداد عبادةً وقرباً من الله تعالى؛ وقد قال سفيان الثوري: «مَا أَزْدَادَ رَجُلٌ عِلْمًا فَازْدَادَ مِنَ الدُّنْيَا قُرْبًا إِلَّا أَزْدَادَ مِنَ اللَّهِ بُعْدًا»^(١)، نسأل الله العافية.

لذا ينبغي أن نحرص على أن نتمثل وصية أبي قلابة لأيوب السخيتاني رحمهما الله وهي وصية جليّة حريّة بالحفظ والرّعاية؛ قال أبو قلابة: «يَا أَيُّوبُ، إِذَا أَحَدَثَ اللَّهُ لَكَ عِلْمًا فَأَحْدِثْ لَهُ عِبَادَةً، وَلَا يَكُنْ هَمُّكَ أَنْ تُحَدِّثَ بِهِ النَّاسَ»^(٢).

وهذه التبعّدات التي ينبغي أن يحرص عليها طالب العلم في يومه وليلته - من كثرة تلاوة القرآن وكثرة ذكر الله تعالى ونحو ذلك - متى أهملها طالب العلم خارت قواه، وضعف قلبه عن حمل العلم والانتفاع به، وأسرعت إليه وساوس الشيطان.

والذي نَقَصَ البركة في كلام كثيرٍ من طلبة العلم اليوم هو الضعف في العمل؛ فهو فقيهٌ ما لم يحضر العمل، فإذا حضر العمل فهو والعامة سواء! وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن هذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم^(٣).

ومثّل الضعيف في التبعّد إذا ابتلي بالشهرة والتفات الوجوه إليه كالسباح الضعيف الصّنعَة في السباحة؛ إذا كان وحده نجا، وإذا تعلّق به غيره غرق وغرقهم معه! أمّا من له حظٌّ عظيم من التبعّد فإنه كالسباح النحرير، تعلّق الغرقى به سبب لنجاتهم وخلاصهم.

وليس العلم بالتصدر في المجالس أو حمل الشهادات المزخرفة بالألقاب، بل رأس العلم وحقيقته تقوى الله وخشيته:

(١) «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (٣ / ٢٧).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١ / ٦٥٤).

(٣) ينظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم (١ / ٤٠٠).

فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللَّهِ حَقًّا وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ لَقَدْ رَأْسَتَا^(١)

قال الشيخ حافظ الحكمي^(٢):

مَا الْعِلْمُ حَمْلُ شَهَادَاتٍ مُزْخَرَفَةٍ بِزُخْرَفِ الْقَوْلِ مِنْ نَشْرِ وَمُنْتَظَمٍ
بَلْ خَشْيَةُ اللَّهِ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنٍ فَأَعْلَمَ هِيَ الْعِلْمُ كُلُّ الْعِلْمِ فَالْتَزَمَ

وللهاللي في نصيحته^(٣):

وَالْعِلْمُ مَا أَكْسَبَ خَشْيَةَ الْعَلِيمِ فَمَنْ خَلَا مِنْهَا فَجَاهِلٌ مَلِيمٌ
لِأَنَّهُ مِيرَاثُ الْأَنْبِيَاءِ فَلَمْ يَنْلُهُ غَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ

- ومن آداب طالب العلم: أن يُكثر من سؤال الله العلم النافع؛ قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ

زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، لم يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم.

وقد امتثل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فكان صلى الله عليه وسلم يلزم هذا الدعاء في بداية كل يوم ومفتتحه؛ ففي حديث أم سلمة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا صلى الصبح حين يسلم: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا»^(٤)؛ فكان يفتح يومه بتحديد غاياته ومقاصده وهي هذه الثلاث، وأولها العلم النافع، وليس هذا تحديدًا لأهدافه وغاياته في يومه فحسب، بل هو دعاء وتضرع إلى الله بأن يمنّ عليه بتحصيل هذه المقاصد العظيمة التي أعظمها العلم النافع.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام الليل افتتح

(١) «ديوان أبي إسحاق الإلييري» (ص ٢٧).

(٢) «المنظومة الميمية» لحافظ الحكمي (ص: ١٣).

(٣) «النبوغ المغربي في الأدب العربي» (٣ / ٧٧٩).

(٤) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢٦٥٢١)، وابن ماجه في «السنن» (٩٢٥)، وصححه الألباني في «صحيح

وضعيف سنن ابن ماجه» (٩٢٥).

صلاته بقوله: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١).

وقد قال ابن القيم رحمه الله في «إعلام الموقعين»: «حَقِيقُ بِالْمُفْتِي أَنْ يُكْثِرَ الدُّعَاءَ بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ...» وذكر هذا الدعاء، ثم قال: «وَكَانَ شَيْخُنَا -يعني شيخ الإسلام ابن تيمية- كَثِيرَ الدُّعَاءِ بِذَلِكَ، وَكَانَ إِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ الْمَسَائِلُ يَقُولُ: يَا مُعَلِّمَ إِبْرَاهِيمَ عَلِّمْنِي! وَيُكْثِرُ الِاسْتِعَانَةَ بِذَلِكَ»^(٢).

فحريٌّ بطالب العلم أن يُكثر من سؤال الله العلم النافع، وأن يزيده الله علمًا، وبوابةً التوفيق هي في دعاء الله، والاستعانة به؛ فما تعرَّسَ مطلبٌ أنت طالبه بربك، ولا تيسر مطلبٌ أنت طالبه بنفسك:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ مِنَ اللَّهِ لِفَتَى فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ^(٣)

أسأل الله أن يرزقنا جميعًا العلم النافع والعمل الصالح.
والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) أخرجه مسلم في «الصحیح» (٧٧٠).

(٢) «إعلام الموقعين» لابن القيم (١/١٥٨).

(٣) «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (١/١٧٧).